٤

المكتبة الوطنية

كمال ناصر

ضمير الثورة

د. إبراهيم نمر موسى

SPC
PJ
7852
.S4
Z76
2008
BZU

Digitized by Birzeit University Library

Acc. # 202704

المكتبة الوطنية

٤

SPC
PJ
7852
.S4
Z76
2008
BZU

كمال ناصر

ضمير الثورة

(١٩٢٥-١٩٧٣)

د. إبراهيم نمر موسى

C.1

مكتبة جامعة بيرزيت
المجموعات الخاصة
Special Collections
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY

المركز الفلسطيني
للبحوث والدراسات الاستراتيجية

Digitized by Birzeit University Library

الهيئة الإستشارية

سميح القاسم

د. يونس عمرو

د. جواد وادي

محمد علي طه

د. علي زيدان

أنطوان شلحت

الإشراف الفني

سمير حنون

التحرير

منذر عامر

Digitized by Birzeit University Library

مقدمة

شكّلت أحداث النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨، وما تلاها من أحداث فاجعة سنة ١٩٦٧ باحتلال فلسطين التاريخية،وأراض عربية أخرى، شكّلت مركزاً للاستقطاب الشعري لدى كمال ناصر، للتعبير عن تلك المأساة الإنسانية التي أدت إلى تشريد شعب بأكمله من أرضه ووطنه، ودخلت في تلافيف الذاكرة الجماعية، فرفع الشعراء – ومنهم كمال ناصر– لواء الثورة على الاحتلال الإسرائيلي والدول الغربية المساندة له، من خلال قصائد ممتزجة بعرقهم ودمهم، تؤسس لرؤيا تحريضية ضد الإبادة والتنكيل الوحشي بالإنسان، وتستحضر في الوقت نفسه الوطن بوصفه نواة حية، تنمو في كل أماكن النفي داخل الوطن وخارجه؛ وبذلك أصبح الشعر سجلاً إبداعياً لصياغة الذاكرة الفلسطينية.

لقد تفتح الوعي الوطني والقومي للشاعر كمال ناصر منذ طفولته، عبر مشاركته في مظاهرات الطلبة في ثورة ١٩٣٦، ثم التحاقه بصفوف حزب البعث، والثورة الفلسطينية، واستطاع أن يقيم عالمه الشعري على أساس من ذلك، متخذاً من الوطن صورة مثالية تسكن في حنايا الروح، وترسم لمدنه وقراه خارطة شعرية بعد أن فقدها جغرافياً، وسكنها غرباء قدموا من أنحاء العالم،فكان ذلك تصويراً لسِفْر النكبة والنكسة، واستجلاء لآثارهما المدمرة على حياة الإنسان الفلسطيني، الذي توجب عليه الدفاع عن هويته الوطنية، وكينونته القومية والإنسانية بإبداع واقع جديد،يَلُمُّ الفلسطيني فيه شتات نفسه، وأشلاء وطنه، لينجز عودته إلى وطن الروح.

Digitized by Birzeit University Library

سيرته

ذكر أحد الباحثين أن كمال بطرس إبراهيم ناصر، ولد في العاشر من شهر إبريل / نيسان سنة ١٩٢٥، في بلدة بير زيت لأسرة مسيحية إنجيلية،[١] وحقيقة الأمر من الناحية التاريخية أنه ولد في مدينة "غزة"، حيث كان والده يعمل ضابط منطقة "قائمقام" زمن الانتداب البريطاني برتبة نقيب، "وما لبث أن عين مستشاراً للحاكم العسكري البريطاني، وعندما أصبح الحكم في غزة مدنياً عُين فيها ضابط منطقة (قائمقام)"[٢] وكان رجلاً دمث الأخلاق محباً للناس، ينال ثقتهم واحترامهم لصدقه وتواضعه، فأطلقوا عليه "أبو الفلاحين"، وقد عرف بيته وبيوت العائلة "أقدام الشريدين والمطرودين من أراضيهم، والعاطلين من العمال إلى باب دار آل ناصر العريقة، التماساً لرحمة جده القس الإنجيلي، أو خبرة أبيه ضابط البوليس، وتعرَّف كمال ناصر في جراحهم أبعاد المأساة التي لم يكف الاستعمار البريطاني عن نسجها لبني قومه"[٣]، وقد توفي والد كمال في بير زيت سنة ١٩٥٩، ولم يستطع وداعه لأنه كان منفياً خارج الأردن بعد أن قام بقيادة المظاهرات ضد الملك.

أما والدته وديعة حنّا ناصر، فقد تميزت بثقافتها وعلمها،وقوة شخصيتها، وكانت مربية فاضلة لأبنائها الستة، كما كانت تحاول من حين لآخر قرض الشعر، فضلاً عن إجادتها اللغة الإنجليزية بسبب دراستها في مدرسة "الفرندز"، وهي من أفضل المدارس آنذاك، وتخرجت فيها سنة ١٩٠٩، وقد أنجبت ثلاثة ذكور هم: سامي، ووديع، وكمال، كما أنجبت ثلاث إناث هن: آلين، وسلوى، ولوريس، وكان كمال أصغر إخوته الخمسة،فنال منهادلالاً لم ينله إخوته، وبخاصة عندما أبدى حباً للشعر والموسيقا، فاهتمت بتوجيهه أدبياً.

Digitized by Birzeit University Library

دراسته وثقافته

تفتحت عينا كمال منذ طفولته في منزل العائلة على مكتبة ضخمة، تضم بين رفوفها كتباً في مختلف العلوم والآداب القديمة والحديثة، فضلاً عن كتب التاريخ، وقد ساعدت هذه الكتب التي قرأ أكثرها في مراحله المبكرة من حياته، على صقل موهبته الأدبية، وأجرت عذب الكلام على لسانه، كما قرأ شعر أحمد شوقي الذي عدّه مثله الأعلى في الشعر، وتوّج ذلك بدراسة أجزاء من القرآن الكريم "قراءة وتفسيراً، وكان هذا سبباً في تقوية لغته العربية، كما أنه كان يذهب كثيراً للصلاة في الجامع، مع أحد المزارعين المسلمين في يافا"[٤]، يضاف إلى ذلك جمال الطبيعة من حوله، فـ "بير زيت" اشتهرت بهذا الاسم لكثرة ما فيها من أشجار الزيتون، والكروم، والينابيع المتعانقة والمنتشرة في كل مكان من حوله، وفي هذا يقول إبراهيم الدباغ: إن المواقع التي تحمل اسم الزيت والزيتون وزيتا كثيرة في بلاد الشام، وهي سريانية بمعنى شجرة الزيتون وثمره وزيته، وهي من القرى والمدن في بلادنا التي تحتفظ باسمها الذي عرفت به في عهد الرومان...بئر زيت[٥]، ويقال إن أصل التسمية في رأي السيد إبراهيم علّوش زمن الرومان "بيت زيت"، ثم أوّلها العرب لاعتقادهم أن الزيت يوضع في "بير" لا في "بيت"[٦].

درس كمال في مدرسة بير زيت، التي أسستها خالته (نبيهة ناصر) سنة ١٩٢٤، والتي تحولت بالتدريج إلى كلية بير زيت سنة ١٩٤٢، وهي الكلية الوحيدة في فلسطين آنذاك، وكانت تركز في تدريسها على اللغتين العربية والإنجليزية، ثم تحولت إلى جامعة بير زيت سنة ١٩٧٦، وقد أظهر كمال منذ نعومة أظفاره استعداداً أدبياً مبكراً، فقد حصد جوائز سوق عكاظ للشعر،الذي كانت تقيمه الكلية سنوياً.

عندما أنهى كمال دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٤٥ في

Digitized by Birzeit University Library

العلوم السياسية، عاد إلى أرض الوطن، وعمل مدرساً للغتين العربية والإنجليزية فترة من الزمن في مدرسة صهيون بالقدس، والكلية الأهلية برام الله.

تفتّح وعي كمال ناصر الوطني عندما كان طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فقد أشعلت أحداث الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ شرارة النضال في صدره، بما يتناسب مع عمره الغض آنذاك، فقاد مظاهرة للأطفال ضد الاحتلال البريطاني، والهجرة الصهيونية إلى فلسطين، كما كان يأتي بالأخبار للثوار ويمدهم بما تيسر له من المؤن والطعام، كما صرخ في وجه جندي بريطاني قائلاً عن اليهود: " لن يسرقوا وطني وأنا مكتوف اليدين"(٧)، كما عرف عنه أيضاً أن البوليس البريطاني قد ألقى القبض عليه في إحدى المظاهرات " وأُرسل بصحبة رجلين من رجال البوليس إلى والده حاكم رام الله في ذلك الحين،وعندما سألهما عما إذا كانا لم يجدا أحداً غير ابنه من بين آلاف المتظاهرين ليلقيا القبض عليه، أجاباه بأدب جم بأنه هو الذي كان يقودها"(٨)، وفي قول الباحث عن والده أنه كان "حاكم رام الله" مجانبة للصواب، إذ لم يكن والد الشاعر يوماً ما حاكماً لرام الله، بل كان حاكماً للرملة(٩).

في غمار السياسة

ترشّح كمال ناصر في سنة ١٩٥٦ باسم حزب البعث للانتخابات النيابية الأردنية، فأحرز نجاحاً بأغلبية كبيرة في أصوات الناخبين، وعن كيفية نجاحه قال: "وصلتُ إلى مقعد النيابة لاهثاً ومتعباً، ولكن بشرف وبعد نضال وطني دام سنوات طويلة، فلقد كان للنضال الوطني طعم في تلك الأيام...وكان الطريق إلى البرلمان من خلال انتخابات حرة، هو أقصى ما يطمح إليه المناضل العقائدي، ليتمكن من رفع صوته والترويج لمبادئه

Digitized by Birzeit University Library

بعد سنوات طويلة من التعب والضرب والسجون المختلفة التي مر بها معظم أحرار بلدنا في تلك الفترة"[١٠]، ولأنه كان ذا حضور ونشاط دائمين، انتخبه أعضاء المجلس عضواً في لجنة الشؤون الخارجية، وعضواً في لجنة اللاجئين، وأثارت إنجازات الحكومة ومجلس والنواب ثائرة الاستعمار وبخاصة إلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية.

وبعد فترة وجيزة من انتخابه عضواً في مجلس النواب الأردني، ألغت الحكومة الجديدة المعاهدة الأردنية البريطانية، بعد أن طلبت لجنة الخارجية من الحكومة ذلك، فأصبح نواب المجلس بين سجين ومطارد، وقبل ذلك رأيناه يتقدَّم صفوف المتظاهرين هاتفاً ضد سياسة الملك، لذلك حاولت السلطات اغتياله مرات عدة، فقرر وأصدقاؤه الاختفاء في بلدته "بيرزيت"، وعندما علمت السلطات حاصرت البلدة مرات عدة، لكنها فشلت في القبض عليه، بالرغم من أن الجيش كان قاب قوسين أو أدنى منه، فكرَّ راجعاً (بخفي حنين)، ثم قرر التخفيف عن أهل قريته برحيله إلى نابلس ثم إلى سوريا سنة ١٩٥٨.

وعندما احتلت إسرائيل ما تبقى من أرض فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة في سنة ١٩٦٧، شعر كمال بأن الهزيمة رصاصة مزقت شرايين جسده، وحاول أن يهرب من عيون الأطفال التي طاردته، ولكنه لم يستطع ذلك، فاتخذ قراراً مع خمسة من رفاقه بمواصلة ما سمّوه "الكفاح السلبي"، وقد فوجيء بقيام العمليات المسلحة ضد الاحتلال الصهيوني في الضفة الغربية وقطاع غزة، التي لم يكن يعرف عن أصحابها شيئاً، فقال في ذلك: "كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها بوجود التنظيم المسلح داخل الوطن المحتل"[١١]، وقال أيضاً: "ووجدتُ نفسي أمام الأمر الواقع، أتحدث وأناقش بعض وجهات

Digitized by Birzeit University Library

النظر حول الموضوع، فقد كنت أميل إلى التريث والاستعداد، وخاصة فقد كنت ألمس وأحاول تفهم نفسية الشعب بعد الاحتلال مباشرة، وردود الفعل المختلفة للعنف الثوري، الذي كان العدو يقابله بالسحق والذبح، وكنت أُفضِّل أن تنظم البلاد للمقاومة السلبية كما نصحنا بعض أصدقائنا التقدميين من أبناء الأرض المحتلة، ثم نعود إلى تصعيد الكفاح بالسلاح"[١٢].

هكذا كانت نكسة حزيران ونتائجها سِنة ١٩٦٧ جرحاً نازفاً في قلب العروبة لم يندمل حتى هذا الوقت، وقد شكّلت علامة مأساوية فارقة في نفوس الأمة وشبابها المناضل،أدرك بعدها كمال ناصر حقيقة فاجعة، وهي هشاشة البيانات الملتهبة،والتصريحات الحماسية، لكن سلطات الاحتلال الصهيوني لم تمهله كثيراً للعمل النضالي داخل الأرض المحتلة،إذ سرعان ما اعتقلته الشرطة الإسرائيلية مع زميله إبراهيم بكر في ١٩٦٧/١٢/٢٣، وأبعدتهما إلى الأردن، وهناك أصبح عضواً في لجنة إنقاذ القدس.

الصحافي

بعد أن أنهى كمال ناصر دراسته الجامعية سنة ١٩٤٥،عاد إلى أرض الوطن، فعمل في التدريس، وبدأ يكتب في صحيفة "الوحدة" التي كانت من أكثر الصحف انتشاراً في ذلك الوقت،وجعل العمل في الصحافة مهنة له، يُعبِّر من خلالها عن أفكاره الوطنية وتوجهاته القومية، ومبادئه الإنسانية المناهضة للاستعمار، والداعية إلى الحرية والعدالة والمساواة، وسرعان ما أصبح كمال عضواً في هيئة تحرير الصحيفة. وقد خاض كمال معركة حادة على صفحات جريدة "الوحدة" مع الشاعر الكبير عبد الرحيم محمود الذي كان يكتب لصحيفة "الحرية" في يافا،حول مفهوم الشعر، وعندما التقيا بعد فترة من الزمن في القدس، انتهى بهما المطاف صديقين حميمين[١٣].

Digitized by Birzeit University Library

لم يكن كمال ناصر يرضى بالكتابة لصحيفة واحدة، فقد كتب في صحف: الوحدة، فلسطين، الدفاع، وغيرها. كذلك عمل كمال ناصر سكرتير تحرير لصحيفة "فلسطين" اليومية، وأصدر مع زميله عبد الله الريماوي جريدة "البعث" سنة ١٩٥٠، الناطقة بلسان حزب البعث في الضفة الغربية، ثم شارك في تأسيس مجلة "الجيل الجديد". كما أسس مجلة "فلسطين الثورة"، وتولى منصب رئيس التحرير منذ إصدارها في يونيو/حزيران سنة ١٩٧٢ حتى تاريخ اغتياله.

غطى كمال ناصر الصحافي وقائع المفاوضات بين الجانبين الأردني والإسرائيلي في أواخر سنة ١٩٤٨، حين طلبت لجنة الهدنة المشتركة من الطرفين ذلك، حيث أظهرت المفاوضات مدى التشدد الصهيوني بسرقة أرض فلسطين، وعدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة، وبعد انتهاء جلسة من المفاوضات على الحدود في منطقة طولكرم – قلقيلية، لحق كمال ناصر برئيس الوفد الإسرائيلي آنذاك "موشي ديان"، وقال له: "لقد استمعت إلى المهزلة في الداخل، وأنصح بأن لا تتم مثل هذه الإجراءات، إنها خطيرة، وتزيد أضعاف أضعاف على ما هو في قرار التقسيم، وستشعل النار من جديد"، وكان يقصد ما انتهت إليه المفاوضات من تسليم الجانب الأردني المثلث الفلسطيني للصهاينة، فأجابه "ديان" قائلاً: "هذه الحرب، وسوف تنسون، نحن نعرفكم"[١٤].

الحزبي

تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي رسمياً بانعقاد مؤتمره الأول في السابع من إبريل/نيسان ١٩٤٧، رافعاً شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية، وسرعان ما انتشرت مبادئ الحزب في أرجاء الوطن العربي. وقد انتسب

Digitized by Birzeit University Library

كمال ناصر إلى صفوف الحزب في سنة ١٩٥٢ على أرجح الروايات، حيث كان له بريقه وتألقه في الوطن العربي، باعتباره قارب النجاة، ومنقذ الأمة العربية من الاستعمار ومحرر فلسطين، فضلاً عن شعاره البراق في الوحدة والاشتراكية،وقد شكل هذا كله حلماً من أحلام الشباب العربي التائق للحرية والعدالة الاجتماعية.. إلخ، وكان كمال ناصر أحد هؤلاء الشباب الذين آمنوا أيضاً بضرورة النضال الجماهيري المنظم، لذلك رأيناه يؤسس مع زملائه أول تنظيم لحزب البعث في فلسطين بمدينة رام الله.[١٥]

وعندما طاردته السلطات الأردنية لم يجد مفراً من السفر إلى دمشق، التي أقام فيها سنتين زمن الوحدة، ثم انتقل إلى القاهرة لاجئاً سياسياً، وهناك قلده الرئيس جمال عبد الناصر وسام التقدير لجهده المخلص في نصرة القضايا القومية، وبقي في مصر حتى قيام ثورة البعث في سوريا والعراق سنة ١٩٦٣، وبعد تسلم حزب البعث مقاليد السلطة في سوريا استدعي إلى دمشق للقيام بمهام حزبية، وبقي فيها حتى سنة ١٩٦٥، ثم غادرها إلى بلدته بير زيت بعد صدور عفو عام شمل كثيراً من السياسيين آنذاك، ثم سافر إلى دمشق سنة ١٩٦٦، لكنه سرعان ما تم اعتقاله بعد انقسام حزب البعث على نفسه، ولكنه وقف مع القيادة الشرعية للحزب بقيادة "الأستاذ" ميشيل عفلق، وحاول إصلاح ذات البين.

ويتساءل الباحث سهيل سليمان عن بعثية كمال ناصر حسب المفهوم الحزبي السائد، ثم يجيب بقوله: إنه كعضو كان يتعين عليه أن يكون في مرتبة معينة يناضل من خلالها على أساس التسلسل التنظيمي المتداول. ولكن كل من عرف هذا النموذج البعثي الطريف أكد أنه لم يكن منضبطاً كسائر الرفاق،ولم يتقيد بقيد حزبي قط، ولا تفصله عن مرتبات حزبية أدنى أو أعلى أية فواصل.[١٦]

Digitized by Birzeit University Library

منظمة التحرير الفلسطينية

انضم كمال ناصر إلى صفوف الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٩، وانتخب في شهر فبراير/شباط من السنة نفسها عضواً في أول لجنة تنفيذية بقيادة ياسر عرفات، وأسس وتولى رئاسة دائرة التوجيه والإعلام، وعمل منذ اليوم الأول وفق رؤيا قومية بتأثير من أيديولوجيا حزب البعث، التي شكلت مفصلاً مهماً من مفاصل حياته السياسية، فقد كان يرى " أن الارتباط القائم بين الثورة الفلسطينية، وحركة التحرير الوطني العربي، هو أعمق من مجرد ارتباط تحالفي أو رفقة ثورية لتيارين متوازيين "[١٧]، كما أننا سنجد هذا البعد القومي متجلياً بوضوح في مقالاته في مجلة " فلسطين الثورة "، فضلاً عن الدعوة إلى وحدة الفصائل الفلسطينية، ونتيجة لهذا كله، ولأسباب كثيرة أخرى، لُقّب من زملائه في منظمة التحرير بلقب "الضمير".

أوكلت إليه قيادة منظمة التحرير القيام بأعمال كثيرة منها: إقناع بابا الفاتيكان بحق الشعب الفلسطيني في القدس الشريف، وشارك في الندوة العالمية للمسيحيين من أجل فلسطين، ونجح في توحيد صوت الثورة (الإعلام الموحد)، وأصبح هذا الإعلام صوتاً واحداً للفصائل الفلسطينية، وأشرف على تأسيس وتشكيل اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وأسس مجلة " فلسطين الثورة "، حيث كان يرى أن " الثورة دون فكر هي مجموعة من العصابات، ولا بد أن يكون هناك فكر موحد حتى تكون ثورة موحدة، والمجلة هي فكر الثورة "[١٨].

وبقي كمال ناصر يعمل في أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية، مدافعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني في العيش بحرية وكرامة، إلى أن اغتالته يد الغدر الصهيونية، التي قررت اغتيال المفكرين والأدباء والسياسيين

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينيين البارزين،فقد اغتالت الأديب والمناضل الكبير غسان كنفاني في الثامن من يوليو / تموز ١٩٧٢ في بيروت، بوضع عبوة ناسفة في سيارته،وها هي تنفذ عملية أخرى فجر الثلاثاء العاشر من إبريل / نيسان ١٩٧٣،تودي بحياة الأديب والمناضل كمال ناصر في شارع (فردان) حيث كان يسكن في بيروت، ويقال إنه كان يكتب آخر مقالة له عن "حرية الجواسيس في لبنان"،"فألقى بالقلم وشهر مسدسه لمواجهة المعتدين فزادوا من غزارة إطلاق النيران أثناء اقتحامهم الشقة لإنهاء مقاومته، وعندما سقط أطلقوا عشر رصاصات على فمه،لإسكات الصوت الذي كان يفضح عنصريتهم وجرائمهم، ثم مدوا يديه على شكل صليب وكأنهم ينذرون كل مسيحي يقاوم إرادة الصهاينة بالصلب"[١٩].

أعماله الأدبية:

١- جراح نغني - بيروت - ١٩٥٩.

٢- أنشودة الحقد - بيروت - ١٩٥٩.

٣- أغنيات من باريس - بيروت - ١٩٦٥.

٤- أناشيد البعث - بيروت - ١٩٦٧.

٥- خيمة في وجه الأعاصير.

٦- أغنية النهاية.

٧- الآثار الشعرية الكاملة - بيروت -١٩٧٤.

٨- الآثار النثرية - بيروت-١٩٧٤.

أعماله المسرحية:

٩- التنين ١٩٦٥

١٠- مصرع المتنبي

١١- الصح والخطا

Digitized by Birzeit University Library

شعره : في تمزّق الوطن

لا شك أن مأساة فلسطين وتسلسل أحداثها الدامية منذ وعد (بلفور) سنة ١٩١٧، وصولاً إلى النكبة سنة ١٩٤٨، قد حفرت عميقاً في قلب العروبة ونفوس أبنائها وأدبائها المخلصين، ومنهم كمال ناصر الذي شارك في مظاهرات عدة ضد الاحتلال البريطاني في صباه سنة ١٩٣٦، وترجم مشاركاته الوطنية في قصائد شعرية، تضيء نفسه وواقعه الذي تكشّف عن مآس إنسانية،وخيانات عسكرية، وفضائح سياسية، وبهذا بدأ كمال ناصر الإنسان والشاعر "يواجه المأساة الحقيقية، وتشبّع صغيراً بما سمع ورأى ووعى من حوادث الظلم والاغتصاب، وأحس ضياع شعب بأكمله بضياع أرضه، وأحس بالمؤامرة التي تحاك ضده،ومن يومها بدأ يشارك الغاضبين مسيراتهم التي يُعبِّرون فيها عن غضبهم.. وفي إحدى تلك التحركات قاد كمال إخوته الصغار في تظاهرة تعبيراً عن سخطهم واستنكارهم لتهويد فلسطين"[٢٠].

إن انتماء كمال ناصر لحزب البعث الذي رفع شعار الوحدة العربية والحرية، ثم التحاقه بصفوف الثورة الفلسطينية، فضلاً عن عمله في مجال الصحافة، كان له أثر كبير في وعيه الفكري،ونضجه السياسي، وبذلك أدرك أبعاد المأساة الفلسطينية، وظلت في صعود مستمر حتى ملكت عليه قضايا الوطن والتحرر والمقاومة جل فكره وروحه، فربط بين ضياع فلسطين سنة ١٩٤٨وضياع نفسه من جهة، ومأساة فلسطين ومأساته من جهة أخرى[٢١]،حيث يقول:

مأساة هذا الجيل مأساتي ... وجراحه الثكلى جراحاتي

أنا بعض ما ينساب من دمه ... وكأنه من بعض آهاتي

Digitized by Birzeit University Library

قدران في درب المنى اعتنقا هيهات ينفصلان هيهات (ص٥٣)

كما نراه يتوجه في قصيدة "الزعامات" إلى شباب البلاد ورجالها قائلاً:

يا شباب البلاد ما أضيع العمر إذا الشعب لم يثر لهوانه
أنتم الزهر يانعاً لست أرضى أن أراه يذوي على أفنانه
إنما المجد وثبة ودماء فاتركوها تسيل في ميدانه

(ص٦٠-٦١)

ترتكز الأبيات أو القصيدة في إطارها الكلي على توظيف الشاعر لأسلوب النداء "يا شباب"، الدال على الالتماس لاستعادة الوطن السليب، الذي لم يترك العدو منه سوى "بقايا" أو أشلاء ممزقة تتجرع الشقاء والهوان، ولا بد لشباب فلسطين ورجالها أن يُقدّموا أنفسهم قرباناً على مذبح الحرية، وأن يحملوا على عاتقهم عبء النضال.

كما أصبحت أشياء العالم ومكوناته تستدعي في ذهنه صورة ذاتية وجدانية، لكنها مقترنة بجغرافية الوطن في بعدها المثالي، الذي لا يخلو من البهاء والصفاء، كما تصبح ذاكرته قادرة على استعادة حكايته، التي لا تخلو من فقدان للأرض ومصادرة للحياة، وقد تجلّت هذه الأبعاد في قصيدة "رؤى وأصداء" المتولدة من صوت "الشّبابة" القادم من أعماق الأزل البعيد، ليلامس أعماق الروح. يقول:

شبابة الراعي التي حملت لحن الجمال البكر من بلدي
أنغامها السكرى تطاردني وتعيش في سمعي وفي خلدي
وتصيح في أذني وتنقلني من عالمي المتجهّم النكد

Digitized by Birzeit University Library

فأعيش في رؤيا تعذبنـــــــــي وتسيل من جرحي ومن كبدي

(ص٢٨٤)

تنهض الأبيات على بنية التداعي الحر من خلال مثير خارجي "الشّبابة" ، التي تجعل الشاعر يرتد إلى عالمه الداخلي وما يموج فيه من صور وذكريات عن جمال وطنه، وشوقه إليه، ليفرِّج عن هموم الحاضر، ونكد الدنيا، ولكن هذا في الوقت نفسه يزيد من وعيه،فيجعل أشلاء العمر وتمزق أوصال الوطن بفعل الاحتلال مقترنين أحدهما بالآخر.

إن اعتماد الأبيات على التداعِي الحر في إنتاج دلالاتها،يجعل الأبيات / القصيدة نسيجاً محكماً تشكله وتغذيه جملة من العناصر، لعل من أهمها ذاكرة الشاعر وما تجيش به من خزين معرِفي ووجداني، وبهذا تتحول الذاكرة في رأي الشاعر العراقي علي جعفر العلاّق إلى بئر طافح حتى القرار بخزين لا ينتهي من "القراءات" ، لا تتم كتابة القصيدة بمعزل عن تلك البئر(٢٢).

الخيمة والمنفى

تشير الدلالة اللغوية للمنفى إلى الإبعاد، وإخراج الإنسان من بلده مطروداً، أو هو عقوبة بإبعاد شخص خارج حدود بلاده لفترة محدودة، وقد نصَّت الدساتير الحديثة على تحريم إبعاد المواطن من أراضي وطنه، أو منعه من العودة إليها(٢٣).

ولكي تكتمل الجريمة بحق الشعب الفلسطيني،أصدرت سلطات الاحتلال الاستيطاني قانوناً جديداً أُطلق عليه " قانون أملاك الغائبين" ، يحق لها بموجبه التصرف الكامل بالوقف الإسلامي، "وفي هذه الحالة لا يمكن

Digitized by Birzeit University Library

الافتراض أن الطائفة الإسلامية لم يعد لها وجود في البلاد بعد قيام الدولة، لكن رغم ذلك نقلت أملاك الوقف الإسلامي إلى القيِّم على أملاك الغائبين، وربما كان ذلك على أساس الافتراض بأن الله أيضاً "غائب" حسب قانون أملاك الغائبين"[٢٤]؛ فإذا عمد هذا القانون إلى تغييب "الله" الحي الباقي، فإن الشعب الفلسطيني سيكون نسياً منسياً.

لقد عاش كمال ناصر أحداث النكبة والهجرة والنفي عن الوطن على مستويين: أولهما عندما كان مطارداً من سلطات الاحتلال البريطاني، وثانيهما معايشته النفسية والفكرية لمأساة شعب مروّع مطارد، ونزوح بعض أفراد أسرته إلى عمّان بعد نكسة ١٩٦٧، فكان شعره في أكثره تعبيراً فاجعاً عن هذه المأساة أو المحرقة الإنسانية في التاريخ الحديث. ويستدعي الشاعر صورة اللاجئين وخياراتهم الوطنية والإنسانية في قصيدة "يا مجرمون"، التي أوحتها له ذكرى الخامس عشر من (أيار) فيما يسمى بتأسيس دولة إسرائيل يقول:

وطني فديتك، كل جرح فيك يا وطني يهون
والله ما نام الزمان وإنما أرخى الجفون
هي خلسة للغدر لاحت واستبد بها الفتون
فاخفق على سيف الأذى، وانهض على جرح السنين
واصبر فمثلك لا يذل، ولا يزول، ولا يلين
أحقاد شعبك حية حمراء يضرمها البنون
وضريبة الإيمان أن نبقى على القسم المصون:
"إمّا يعود اللاجئون أو أن يموت اللاجئون" (ص٩٨)

تشير الصياغة اللغوية في البيت الأخير إلى خيارات اللاجئين بين العودة

Digitized by Birzeit University Library

أو الموت، فتنشأ نتيجة لذلك علاقة تضاد بين العودة/الموت، أو الحياة/الموت في قوله "إمّا-أو"، وهي تدل على التخيير في أن يفعل المخاطَب أحد الشيئين ويترك الآخر،وإنما تركهما معاً ذم[٢٥].

إن الخيمة بدلالاتها الرمزية على النكبة الفلسطينية، تحتوي على أبعاد مأساوية، وعذاب مقيم، يمارس وجوده جنباً إلى جنب مع ساكن الخيمة، ففي "انتفاضة الخيام"، تستحضر الخيمة في سياق الأبيات بوصفها "جمجمة الموت، وهي في الأرض رافعة شراعها كالأكفان"[٢٦]، لتبقى شاهداً على مأساة شعب روَّعته الأحداث. يقول:

يا خيامي هذا أنا يا خيامـــي عدت من عالمي السحيق الدامي
يا خيامي أنا رجعت فهل لـــي ساعة في حماك تطفي أوامي
ليتني أستطيع أنثر قلبـــي بين أضلاعك العواري الدوامي
وتعري على الوجود وظلـــي وصمة في جبين كل همام
مزقي يا خيام أردية الـــذل وميدي مجنونة بالنيام

(ص١٨١-١٨٢)

يتوجه الخطاب الشعري إلى ساكني الخيام، للتعبير عن تجربة ذات بعدين: نفسي حزين، وواقعي رافض لمساعدات الدول الغربية، التي شردت الشعب الفلسطيني بموافقتها في الأمم المتحدة على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وهي في الوقت نفسه تُقدّم له فتاتاً من الخبز والطحين والإعانات الغذائية بديلاً من وطنه، وهي بمعنى آخر تنفي وجود الشعب الفلسطيني وهويته الحضارية.

فدائي وشهيد

بدأت تتضح أبعاد مرحلة جديدة في شخصية كمال ناصر، تنحو

Digitized by Birzeit University Library

منحى الكفاح المسلح، وتطور أساليبه، وتُصعد عملياته، فقد "صعد به الكفاح إلى مصاف القادة المسؤولين في توجيه المقاومة، ولم يعد بإمكان إسرائيل أن تكتفي بإبعاده في حراسة جنودها كما حدث من قبل في نهايات ١٩٦٧، لقد أصبح صوتاً واسع الانتشار لكيان المقاومة الفلسطينية، وصوتاً بالغ التأثير، ناضج الرؤية" (٢٧). يقول في قصيدة "إنّا حملنا على المصلوب رايته":

جلَّ الفدائي عن شعر يراودنـــــي ... فقد حشدت له الأعطار أوزانا
يبصرنه في جحيم الليل عاصفـــة ... وفي الضحى دمعة تنساب تحنانا
الفارس الفاتح المغوار يحرسنـــا ... في ظلمة الليل قديساً وشيطانا
مستنفر الروح والذكرى تطـــارده ... بعيشها أبداً نصراً وخذلانا
عيناه في عتمـــة الأغـــوار تسبقـــه ... لتستفيق على الأغوار آذانا (ص١٤٩)

تنبني الأبيات على ثنائية تقابلية بين الفدائي/الشعر، دون أن ينفي أحدهما الآخر، حيث يميل الشاعر إلى محور الفدائي،ليعبِّر عن عواطفه الباطنية وأفكاره الثورية في تعظيمه وإجلاله، بوصفه الصورة النقية الإيجابية للثورة ضد الاحتلال، إنها صورة الرفض التي تتحدد بها رؤية العالم وصورته، والمؤثرات التي تتشكل من خلال التعبير عنها، الرؤيا الشعرية في بعدها الإنساني الشامل لكل من يواجه الموت والقتل في كل زمان ومكان، ويحاول أن يضيء بدمه عتمة العالم لصنع مستقبل أفضل.

وتكتمل صورة الفدائي في علاقة تقابلية أخرى، تتمثل في الخارج/الداخل، أو الظاهر/الباطن، إذ يشير الشق الثاني الخارجي للثنائية إلى اقتحامه الخطر، ومواجهة الموت الرابض على الحدود في منطقة "الأغوار"، واستعداده لتقديم نفسه قرباناً على مذبح الحرية الإنسانية، فيحضِّر كطائر

Digitized by Birzeit University Library

"العنقاء" محرقته في ظلال "دالية ثكلى" في أرض الوطن، وتكون أوراقها كفنه، وهكذا يعود الفدائي إلى أرضه مرة أخرى، ولكن ميتاً، ويمتلك بموته المكان الذي لم يستطع امتلاكه في حياته.

أما الشق الداخلي أو الباطني في ثنائية التقابل للفدائي، فيكشف فيه الفدائي عن خبايا نفسه في دمعة التحنان، ونجوى الصدور، وقدسية الأخلاق، وبذلك يتجاوز الفدائي/الفارس الجانب الحسي للبطولة في صورتها الدالة على الشجاعة والإقدام ومواجهة الخطر، إلى تصوير ما تنطوي عليه نفسه من قيم إنسانية وأخلاقية رفيعة.

أما "الشهيد" فقد تجلّى في شعر كمال ناصر في صور متعددة، دالة على معنى القتيل في سبيل الله والوطن، حيث يؤكد في قصيدة "رسالة للشهيد"، أنه يحقق بموته حياة الجماعة، ويخلق الحياة من العدم. يقول في المقطوعة الثانية من القصيدة:

وكان يا زمان أن تلفّت الزمان
واخضوضرت في دربنا الجنان
واستيقظ الشهيد في نضالنا الجديد
ليعبر الحياة في أمان
ليزرع الإيمان في الوجدان
وكان دم واحمرَّ أفق وادلهم
(ص٣٠٨-٣٠٩)

يشكّل الشهيد في سياق الأبيات بؤرة مركزية تتحلّق حولها الدلالات، يتجلى ذلك في توظيف الشاعر لأسلوب السرد القصصي بعامة،

Digitized by Birzeit University Library

والسرد القصصي الشعبي بخاصة في قالبه التراثي بقوله: "وكان يا زمان - وكان دم"، التي تحيل إلى الزمن الماضي المتمثل في موت الشهيد، ويستحضر من خلالها مخزون الذاكرة الشعبية، ويتخذ فيها البطل/الشهيد صورة جديدة مضرجة بدمه، تصوّر قسوة العالم، كما تصور في الوقت نفسه انتصار الدم على السيف، ومن ثم تتجاوز الأطر الموروثة إلى تحطيم شبكة العلاقات الإشارية، للدلالة على أبعاد واقعية.

مناصرة الثورات

سجل الشاعر كمال ناصر بلغة إبداعية تاريخ الثورة الفلسطينية، والثورات العربية الأخرى في مصر،والجزائر،والعراق ...إلخ، مازجاً بذلك بين البعدين الوطني والقومي في ضفيرة واحدة، تُجسِّد رؤياه الإنسانية العامة في طرد الاستعمار من بلاد العرب،بوصفه رمزاً من رموز الموت والظلم والتنكيل بالإنسان؛ وبهذا تؤسس قصائده لرؤيا تحريضية ثورية في تغيير وجه العالم، وإضاءة روحه بالحق والخير والجمال.

إن وعي الشاعر بمعطيات الواقع المأساوي، واستجابته في التعبير عن إمكانات الثورات، ورغبته في نجاحها وانتصارها في سياق قصائده، يشكل صرخة احتجاج على واقع فاسد، تحمل الثورات بين ثناياها إرهاصاً إيجابياً بإبداع واقع جديد، يجسِّد أحلام الجماعة وطموحاتها الإنسانية، ويتضح هذا في قصيدة " أنشودة الحقد". يقول:

أنا جيل مضيَّع فرقتنـــــــي   شهوة الغدر واستباحت إبائي
أنا جيل مضيَّع وجهـــــــاد   طعنته الأقـدار في أحشائي
أنا دار وجنَّة وريــــــاض   مطرقات بالذل والإغضاء

Digitized by Birzeit University Library

يا إلهي أنا نداء بــــــــلادي وصـداهـا مـن خـاطـر الظـلـمـاء

حاقد ثائر المنى لملمتني ثـورتـــي فانطلقت من أشلائي (ص١٦٤)

تشكل الأنا الشعرية بؤرة مركزية في سياق الأبيات، وتسيطر على حركة الصياغة اللغوية بعرض رؤاها "أنا جيل"، لتصلنا بأبعاد المأساة في توحدها بالجماعة، للتعبير عن محرقة شعب مروّع مطارد، لكنه لا يستكين لواقعه إلى أن تأتي "الثورة" لكي تلملم شتات نفسه، وتعيد له الحياة والأمل كما أعادت "إيزيس" أشلاء "أوزيريس" في الأسطورة الفرعونية، الذي يشكل معادلاً دلالياً للثورة الفلسطينية دال على التجدد، والثورة على البؤس والظلم. ويمزج الشاعر بين الثورة الفلسطينية وثورة الجزائر، حيث ربط معاناتها بمعاناته فلسطينياً، وتفاعل معها إنسانياً، بعد أن عاينها عن قرب وقت انطلاقها سنة ١٩٥٤، حين سافر إلى الجزائر بوصفه صحفياً ليغطي أحداث الثورة الملتهبة ضد الاستعمار الفرنسي. يقول:

أنا من هناك من الجزائـــــــــــــر أحـلام ثـائـرة وثـائـر

أنـــا مـــلء ثـــورتـهـا لـهـيـب هـــادر، وجـــراح ثائر

أنـــا حـبـة مـــن رمـلـهـا الـقـدسـي أحـيـا فـي الخـواطـر

شُـدَّت إلـى صـدري المـنـى وشُـددت فـي درب المخاطر

قـلـب عـصـامـي، وروح صـامـد، وجـمـوح شـاعـر

فـإذا عـلـمـت وحـنَّ صـدرك لـلـجـهـاد ولـلـمـفـاخـر

فاهتف مع التاريخ إني من هناك من الجزائر (ص٢٩٣)

لا شك أن الأنا الشعرية الفلسطينية قد لاقت أناها الثورية في الجزائر، مما يجسِّد وحدة الدم العربية، التي شكلت همّاً قومياً كحالة من حالات الأنا

Digitized by Birzeit University Library

الباطنية في شعر كمال ناصر، الذي كان يدرك بمقوماته العاطفية والفكرية أهميتها في مواجهة تحديات الأمة، وشق طريقها نحو الثورة والتحرر، مما يجعل من الجزائر وطناً لغوياً وقومياً.

إن نقل هذه المشاعر الوحدوية للآخرين، يجعلهم يعيشونها، ويعمّق لديهم الشعور بضرورة الوحدة وأهميتها، ويجعل الشعر تبعاً لذلك كشفاً جديداً في إدراك الذات المتوحدة بموضوعها "هناك"، ليصل الشاعر في خاتمة القصيدة إلى قوله:

أنا من هناك ومن هنا في كل عاصفة أنا
وطني الكبير يحدّه قلبي على هذي الدنا
وطني الكبير تحدّه لغتي وتشعله المنى
وطني الكبير يحدّه التاريخ دربـاً مؤمنا
أنا من هناك ولم أزل في بعث أمتنا هنا... (ص٢٩٣)

وصفوة القول، إن العلاقة بين الأنا الشعرية في إحالتها على المكان "هناك-هنا" ذات ثنائية تكاملية، لأنهما يشتركان في وطن كبير واحد، ولغة عربية واحدة، وتاريخ مشترك واحد، وأن انبعاث أحدهما سيجد صداه في قلب الآخر وعقله، مما يرشّح السياق للانفتاح الدلالي الشامل على وطن للروح يَحُدّه القلب.

شعره في حزب البعث

كانت تجربة كمال ناصر مع حزب البعث تجربة ثرية على مستويات عدة، حيث اتخذ من هذا الحزب مُنقذاً للأمة من ضعفها، وأملاً في توحيدها

Digitized by Birzeit University Library

وتحريرها من براثن الاحتلال، بعد أن رفع الحزب ثالوثه الإنساني في الوحدة، والحرية، والاشتراكية، مما جذب إليه جموع الشباب العربي آنذاك، يحدوهم الأمل في تحقيق شعاراته على أرض الواقع، وبخاصة بعد نكبة فلسطين، التي لم تستطع الحكومات العربية أن تفعل حيالها شيئاً، فكان البعث سفينة النجاة، أو الأمل المنشود في فترة حالكة السواد من تاريخ الأمة؛ لذلك تَغنّى كمال ناصر في قصائد عدة بحزب البعث، وعبّر عن المعاني السابقة في إحدى قصائده في الذكرى السابعة عشرة لميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي. يقول:

الدرب والظلمة الرعناء تغشـــــاه ... والشعب ضلّ على التاريخ مسراه
يلحّ في الثيه، والأوهام تنهشـــــه ... كأنما الثيه، معقود بدنياه
يزجي الضحايا على ساح الفدا شرفاً ... وليس يجديه في العليا ضحاياه
كيف السبيل إلى التاريخ نبعثـــه ... حيّاً، نعيد إلى التاريخ معناه
أين الطريق إلى آفاق وحدتنـــــا ... تردّ للكبر منا ما فقدناه
تطلع الشعب في أعماق حيرتـــه ... مستنهضاً من ركام الدهر ذكراه
مستنفراً من حناياه طلائعـــــه ... في حومة البعث يلقاها وتلقاه
ومن تطلعه عبر الدجى سطعـــت ... عقيدة البعث تحميه وترعاه

(ص١٢٨-١٢٩)

لكننا نجد هذا الحماس لحزب البعث يفتر قليلاً بعد ذلك، إذ نستشف في قصيدته "وسيبقى البعث الأصيل الأصيل"، التي نظمها بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لميلاد الحزب. يقول:

أتحبـــون أن أغـــرّد للبعـــث وأشـــدو في عيـــده وأطيـــل

Digitized by Birzeit University Library

ليس عندي فقد سفحت شبابـــي بين جنبيه فاحتواني الذبول

شوهت غربة المقاييس روحـــي من تراني وما عساني أقول؟ (ص١٣٩)

تنبني الأبيات السابقة على استجلاء التشوه الروحي،وأسباب الغربة، ونتائجها المدمرة على الشاعر، الدالة على إحساس عميق بالمرارة، وخيبة الأمل في حزب البعث،الذي كان معقد آمال الشباب وطموحاتهم بدعوته إلى الوحدة، والحرية، والاشتراكية،بعد أن سقط هذا الشعار عند أول تجربة حقيقية للحزب بعد حكم سوريا والعراق سنة ١٩٦٣، فضلاً عن تناحر أقطابه، وانشقاقه على نفسه سنة ١٩٥٩، فتبدد بذلك حلم الوحدة العربية، وتفكك عراها بين مصر وسوريا، وعدم قدرة الحزب على قهر الاستعمار واستعادة فلسطين، ويعدُّ هذا مظهراً من مظاهر "تلاشي المعايير" يصبح فيه المجتمع "مفتقراً إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد، أو أن معاييره التي كانت تتمتع باحترام أعضائه لم تعد تستأثر بذلك الاحترام، الأمر الذي يفقدها سيطرتها على السلوك"(٢٨).

الشعر الديني

شكَّلت الأحداث والشخصيات الدينية في شعر كمال ناصر رافداً مهماً من روافد تجربته الشعرية، حيث استقى من آيات القرآن الكريم، ومن العهد الجديد كثيراً من الإشارات التي كشفت عن رؤيا شعرية، تتجاوز معطياتها المعروفة إلى إنتاج دلالات تستوعب الحاضر وأبعاده الإنسانية، في الدعوة إلى النضال، والتضحية، والتوق إلى الحرية والاستقلال، ويتضح هذا في كثير من عناوين قصائده، ففي قصيدته "العودة الكبرى"، يستلهم هجرة النبي (ص) من مكة إلى المدينة، ويجعل الهجرة رمزاً لعودة الفلسطيني إلى وطنه، يقول:

تهيأت إذ هاجرت للعودة الكبـــرى وعدت فراح النصر ينتزع النصرا

Digitized by Birzeit University Library

تهاديت في الصحراء ملء شعابها ... تجر على أذيالها الروع والكبرا
وما ذاك من كبر الأرقاء إنما ... تفجّر فيك الوحي عن نفسه يعرى
وأضفى على الدنيا رؤاه فكبّرت سماء ... تضم الكون من شوفها بشرا
طلائع بعث لم يزل ومضها هنا ... يشع ليهدي الناس من مهجة الصحرا
بروحي بلادٌ لم يزل في رحابها ... نداء شهي الوقع يستلهم الذكرى

(ص٦٤-٦٦)

تحضر شخصية الرسول الكريم (ص) في سياق الأبيات والقصيدة، وهي محملة بأبعاد دلالية متعددة من حياته، حيث يشير الشاعر إلى الهجرة أو "العودة الكبرى"، ولا يشير إلى الخروج، لأن الرسول (ص) "لا يخرج من مدينته، وإنما يتجه إلى مدينته، أو ما سيصبح مدينته، ويحمل معه رسالة يسعى إلى إبلاغها، فهو لا يهرب من ماضيه إلى حاضره، وإنما ينهض لمستقبله"[٢٩]، فهجرة الرسول (ص) من مدينته (مكة) تعني خروجه منها وإليها في الآن نفسه، وهذا استشراف لمستقبل الفلسطيني بعودته إلى وطنه، كما تحضر في سياق القصيدة قدرة الرسول (ص) على المصالحة والإخاء بين القبائل العربية ومنها: الأوس والخزرج، كما يشير الشاعر إلى نزول الوحي بالتكبير لله سبحانه وتعالى لهداية البشرية، ونشر الإسلام في أعماق العالم... إلخ.

ويتوجه الشاعر في قصيدة "شاعر في العيد" إلى الرسول (ص) وإلى الشعوب العربية، يبيّن فيها أن الرسول (ص) بلّغ الأمانة، ونصح الأمة، ووحّدها بعد أن حمل على عاتقه العبء الثقيل، واستطاع بفضل تأييد من الله سبحانه وتعالى وما أودع فيه من حكمة وشجاعة، القضاء على الضلال والكفر والأوثان، وأن يشيد للعروبة صرحاً عالي البنيان. يقول موجهاً خطابه للرسول (ص):

Digitized by Birzeit University Library

يـا رسـول الإسـلام قـد أقبـل العيـد وللعيـد روعـة ومعـاني
قد حملت العبء الثقيل قديمـاً ولجمت الضلال في الأوثـان
أنت شيدت للعروبة صرحـاً قدسياً موطّد الأركـان
وسنحميه رغم أنف الليالـي وسنمضي بـه إلى الحدثـان
(ص٧٩-٨٠)

كما وظف كمال ناصر أسفار "العهد الجديد" وشخصياته، وأهمها شخصية المسيح عليه السلام، ومحور الصلب، ووضع إكليل من الشوك على رأسه حين صلبه - حسب المعتقد المسيحي - وذلك في قصيدة "عيسى بن مريم"، التي يوجه فيها رسالة للمسيح عليه السلام، ويخبره أن تجربة الصلب ومتعلقاتها وسفك الدماء، تمارس ضد الشعب الفلسطيني في العصر الحديث، وعليه أن يتبرأ من الجلاد والقاتل الإنجليز/الغرب، الذي يقتل شعباً كاملاً باسم المسيح، والمسيح بريء مما يفعل القاتل. يقول:

يا ليلة الميلاد قولي للـذي أنـزلتـه للوعـظ والإرشـاد
هذي دماؤك لم تزل مسفوحـة فـوق الصليب تصيح بالجلاد
إكليلك الفخم الجميل تناثـرت أشواكـه في أمتـي وبـلادي
فحنا عليه المؤمنون وقبّلـت آمالـه، آمـال بيـت الضـاد
وسعى إليه الغاصبون فشيـدوا صرحاً على الآلام والأكبـاد
والإنكليز بنوك ذلّت أمـة قامت على الطغيان والأحقـاد
عيسى بـن مريم قـد عرفتـك هادئـاً فاغضب ولو في ليلة الميلاد
واشهد مآسـي الغـرب كـل جريمة قامت هنا باسم المسيح الفادي
إن كنت منهم يا ابن مريم فلتعد لربوعهم لا كنت فينا الهادي (ص٣٤٤)

Digitized by Birzeit University Library

آثار نفسية للمأساة

إذا كانت الذات الإنسانية تسعى للتوازن النفسي والتكامل مع الآخرين، فإنها حين تصطدم بواقع مناقض لرغائبها يحول دون إشباع دوافعها، تجنح إلى الرفض، والتمرد، والانطواء والاغتراب عن المجتمع، تتضح لدى الفرد في صورة اضطرابات نفسية وسلوكية، ولدى الشاعر في صورة معاناة شعرية ذاتية، لكنها بحكم أدبيتها تأخذ جانباً فنياً أو رمزياً عاماً، للتعبير عن أزمة الشاعر النفسية في إطار تجربة وجودية شاملة، قادرة على اكتشاف العالم وإدراكه وإعادة صياغته من جديد.

إن استجابة الجهاز النفسي أو العصبي لهذا الواقع، جعل كمال ناصر شخصية ذات انفعالات حادة، فبرز الاغتراب، والحزن، والشعور بالوحدة...إلخ، بوصفها مكونات تتماهى في شخصيته الإنسانية أو الشعرية، مما فاقم من لهيبها الباطني، لتظهر بعد ذلك في شعر لا يرى فيه "سواه"، أي مستوحد، لكنه حين يلتفت حوله كإنسان اجتماعي، تشغله هموم الإنسان، فيجد "سواه" متجسداً في صورة شعب قوي، يبحث في ظلمات الوجود عن الثوار الذين ألقي بهم في غياهب السجون. يقول في المقطع الأول من قصيدة "الشعب أقوى":

الشعب أقوى...والتفت فلم أجد حولي سوايا
الماء، والزاد القليل، وثورة بين الحنايا
وبقية من ذكريات البيض في إحدى الزوايا
تجترني قلقاً، فأدفعها فتجذبني البقايا
وتشيلني بين الرؤى السوداء، تضحك من رؤايا

Digitized by Birzeit University Library

الشعب أقوى، والتفت وقد بدا حولي سوايا (ص٢٣٩-٢٤٠)

تنبني الأبيات عن تكرار جملة "الشعب أقوى...والتفتُ فلم أجد حولي سوايا"، حيث يعلن الشاعر من خلالها أنه إنسان/شاعر، أو إنسان/ثائر، مستوحد على مستويين: الأول أنه كان مختفياً وحيداً في كهف صغير، تجتره الأحلام وذكريات القلق، وتنتابه الرؤى السوداء. أما الثاني، فيمثل ابتعاده عن رفاقه الثوار، أو ابتعادهم عنه بفعل أغلال السجن التي تعرفها يداه، والتي قيدت أيديهم وأودعتهم في غياهب المجهول، فكان بذلك وحيداً يعاني غربة عن الذات وعن الرفاق.

وتحضر المدن الفلسطينية واحدة تلو الأخرى في مطولته "في فلسطين"، فيقف خاشعاً أمام حيفا وصمود الكرمل وخلوده، ويلقي بنفسه على صدر عكا الحنون أمّ البطولات، ويقسم أنه لن ينسى ثراها، ويبكي بين يدي الناصرة مدينة المسيح عليه السلام، التي لم يعد للخشوع فيها نداء، حتى يصل إلى مدينة الرملة الشقيّة، التي تشكو فيها الأطلال للأطلال، فيقول:

إن عيني تفتّحت في المآسي ... وشفاهي عبّت من الأهوال
وتعمّدت بالدماء فسالت ... في وجودي غنية باللآلي
ليس بدعاً إن ضمني الحقد طفلاً ... وسرى في جوانحي بانحال
هذه الرملة الشقيّة فاسمع ... كيف تشكو الأطلال للأطلال
رفعتها في اللد أخيلة الخطب ... وفيها للخطب ألف سؤال
كيف أودى الزمان بالأرض والدار ... ومادت فيها رواسي الجبال

كيف أودى الزمان بالمجد والبأس فهانت معاقل الأبطال (ص١٧٩).

تنم الأبيات الشعرية عن نفسها في نفثات حارة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً

Digitized by Birzeit University Library

بالبعد النفسي للإنسان، ويتحدد من خلالها سلوكه،وخبراته في الحياة، حين يسترجع بفعالية وحيوية ما اختزن فيها من معلومات، ومشاهد، وخبرات، تعيد بناء الذات،وتجدد الماضي في ضوء الحاضر فـ "أنا أعرف من أنا بفضل السجلات والعلاقات التي تشكل الذاكرة، التي أدعوها ذاكرتي،والتي تختلف في تركيبها عن ذاكرة الآخرين"(٣٠)، وينطبق هذا الوصف على تذكر الشاعر للمدن الفلسطينية التي طرد منها،وهو عندما يفعل ذلك فإنه يروي حكايتها وتاريخها.

وقد عاد الشاعر لرشده - حسب أمنية البلبل- في لحظة من لحظات التجلي الإلهي، والإشراق النوراني، راغباً في أن يجعل الحب قوة قادرة على محو الحقد في الإنسان، بعد أن أخذ بعداً نارياً حربياً لا يعرف المهادنة، ذلك أن الحرب في رأي الروائي الفرنسي ألبير كامو "تطلق في الناس قدرة على الحقد والعنف... لأن المرء يحاول عبثاً فصل نفسه عن حماقة الآخرين وقسوتهم، وليس ثمة ما هو أقل عذراً من الحرب وإثارتها للنعرات القومية، ولكن إذا ما قامت الحرب فمن العبث والجبن أن يقف الإنسان جانباً بحجة أنه ليس مسؤولاً"(٣١)؛ وقد تجسد هذا التجلي في قوله:

رب صنها وامسح جراح فـــــؤادي بحنـان يسمو على أحقـادي

أنا عبد ألح في أصفـــــــادي سمة الضعف وصمة في العباد

فـأعـطــنـي قــوة تـفـك قـيـــادي (ص٣٦)

بناء على ما سبق، يمكن فهم "حقد" الشاعر وتجلياته النفسية، لأنه يواجه وشعبه وأمته عملية اقتلاع كبرى، وبذلك يشكل "الحقد" وسيلة حضور الذات في بُعديها الوطني والقومي، والدفاع عن وجودها وكينونتها، ولا يشكل "قيمة مطلقة أو مبدأ عاماً، وإنما هو أداة آنية ضرورية، فهو صنو الثورة على الظلم، وإباء الاستعباد، ورفض لمسألة المغتصب"(٣٢)، أي أن

Digitized by Birzeit University Library

الشاعر في رأي سهيل إدريس، قد اتخذ الحقد مذهباً طارئاً، وفلسفة آنية، تزول بزوال الاضطهاد والاحتلال[٣٣].

الهوامش

١- يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين- دار الإسراء- القدس-ط٣-١٩٩٢-(ص٦١٤).

٢- د. شهناز مصطفى إستبتية: كمال ناصر حياته وشعره - دار الفارابي - بيروت - ط١-٢٠٠٣- (ص٢٤).

٣- رضا الطويل: كمال ناصر صوتان وجرح واحد - دار الثقافة الجديدة - مصر-١٩٨٣-(ص٢٣).

٤- نقلاً عن د. شهناز: كمال ناصر حياته وشعره - (ص٢٩).

٥- إبراهيم الدباغ: بلادنا فلسطين- (ص٦٧٠).

٦- نقلاً عن سهيل سليمان: كمال ناصر الشاعر والأديب - دار أصالة - بيروت -١٩٨٦-(ص٢٥).

٧- ما سبق: (ص٢٩).

٨- رضا الطويل: (ص٢١-٢٢).

٩- مقابلة مع د. الصبدلي موسى علوش وهو من بلدة بير زيت ومهتم بأنسابها وتراثها الأدبي والشفوي وألف كتيباً في ذلك.

١٠- كمال ناصر: مذكرات لاجئ سياسي - شؤون فلسطينية - بيروت - ع٤٤-نيسان ١٩٧٥-(ص٢٤).

١١- كمال ناصر: الآثار الشعرية- أعدّها وقدّم لها ناجي علّوش- المؤسسة العربية-بيروت - ط١-١٩٧٤-(ص٢٥٥).

١٢- ما سبق: (ص٢٥٥).

١٣- أنظر د. شهناز: كمال ناصر حياته وشعره -(ص٥٤).

١٤- أنظر كمال ناصر: الآثار الشعرية -(ص٢٣٩).

١٥- أنظر سهيل سليمان: (ص٦١).

١٦- ما سبق: (ص٦٢).

١٧- محمد حمادة: كمال ناصر شاعراً ومناضلاً - دار الأسوار- عكا - ط٢-١٩٨٥-(ص٢٩).

١٨- نقلاً عن د. شهناز: (ص١٠٦).

١٩- ما سبق: (ص١١٣-١١٤).

٢٠- د. شهناز: (ص٤٤).

٢١- اعتمدت هذه الدراسة على كمال ناصر: الآثار الشعرية - أعدّها وقدّم لها د. إحسان عباس- المؤسسة العربية - بيروت- ط١-١٩٧٤.

Digitized by Birzeit University Library

٢٢- علي جعفر العلاّق: الشعر والتلقي- دار الشروق- عمّان- ط١- ١٩٩٧ -(ص١٣١).

٢٣- د. إبراهيم أنيس: المعجم الوسيط - مادة "وطن" - مصر- ط٢-١٩٧٢.

٢٤- صبري جريس: " العرب في إسرائيل "، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية - بيروت - ع١-١٩٦٧(ص١٣٢).

٢٥- المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني- تحقيق د. أحمد محمد الخراط - دار القلم- دمشق- ط٢-١٩٨٥- (ص٢١٠).

٢٦- د. ماهر حسن فهمي: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث - معهد البحوث والدراسات العربية - مصر-١٩٧٠- (ص٩٤)

٢٧- رضا الطوبل: (ص٥٠).

٢٨- فيس النوري: الاغتراب - مجلة عالم الفكر- الكويت- مج١٠- ع١- إبريل ١٩٧٩-(ص١٦).

٢٩- د. عبدالله الغذامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية - نادي جدة الثقافي- ١٩٨٥-(ص١١١-١١٢).

٣٠- هانز ميرهوف: الزمن في الأدب - ترجمة د. أسعد رزوق - مؤسسة سجل العرب - مصر- ١٩٧٢- (ص٥٠).

٣١- جرمين بري: ألبير كامو - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا - المؤسسة العربية-بيروت - ط٢-١٩٨١- (ص٤٨).

٣٢- د. إحسان عباس: مقدمة الآثار الشعرية لكمال ناصر-(ص٩).

٣٣- أنظر سهيل سليمان: (ص١٧٦).

مراجع البحث

١- إبراهيم أنيس (دكتور): المعجم الوسيط - مادة "وطن" - مصر- ط٢-١٩٧٢.

٢- إبراهيم الدباغ: بلادنا فلسطين.

٣- جانيت ديلون: شكسبير والإنسان المستوحد- ترجمة جبرا إبراهيم جبرا-وزارة الثقافة-بغداد-١٩٨٦.

٤- جرمين بري: ألبير كامو- ترجمة جبرا إبراهيم جبرا - المؤسسة العربية-بيروت-ط٢-١٩٨١.

٥- رضا الطوبل: كمال ناصر صوتان وجرح واحد - دار الثقافة الجديدة - مصر-١٩٨٣.

٦- سهيل سليمان: كمال ناصر الشاعر والأديب - دار أصالة- بيروت -١٩٨٦.

٧- شهناز مصطفى إستيتية (دكتورة): كمال ناصر حياته وشعره - دار الفارابي-بيروت - ط١-٢٠٠٣.

٨- صبري جريس: " العرب في إسرائيل "، مركز أبحاث منظمة التحرير- بيروت -ع١-١٩٦٧.

٩- عبدالله الغذامي (دكتور): الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية - نادي جدة الثقافي-١٩٨٥.

١٠- عبد الكريم حسن (دكتور): الموضوعية البنيوية في شعر الصباب - المؤسسة الجامعية - بيروت - ط١-١٩٨٣.

Digitized by Birzeit University Library

١١- علي جعفر العلاّق: الشعر والتلقي- دار الشروق - عمّان - ط١- ١٩٩٧.

١٢- قيس النوري: الاغتراب - مجلة عالم الفكر- الكويت - مج١٠-ع١- إبريل ١٩٧٩.

١٣- كمال ناصر: الآثار الشرية - أعدّها قدّم لها ناجي علّوش - المؤسسة العربية - بيروت- ط١- ١٩٧٤.

١٤- كمال ناصر: الآثار الشعرية - أعدّها وقدّم لها د. إحسان عباس- المؤسسة العربية - بيروت - ط١- ١٩٧٤.

١٥- كمال ناصر: مذكرات لاجئ سياسي - شؤون فلسطينية - بيروت-ع٤٤-نيسان ١٩٧٥.

١٦- المالقي: وصف المباني في شرح حروف المعاني- تحقيق د. أحمد محمد الخراط - دار القلم - دمشق- ط٢-١٩٨٥.

١٧- ماهر حسن فهمي (دكتور): الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث - معهد البحوث - مصر- ١٩٧٠.

١٨- محمد حمادة: كمال ناصر شاعراً ومناضلاً - دار الأسوار- عكا- ط٢-١٩٨٥.

١٩- محمد مصطفى هدّارة: النزعة الصوفية في الشعر العربي المعاصر - مجلة فصول - مصر- مج١- ع٤- يوليو ١٩٨١.

٢٠- موسى علوش (صيدلي): وهو من بلدة بير زيت ومهتم بأنسابها وتراثها الأدبي والشفوي وألف كتباً في ذلك، أجريت المقابلة بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٢.

٢١- هانز ميرهوف: الزمن في الأدب - ترجمة د. أسعد رزوق- مؤسسة سجل العرب - مصر-١٩٧٢.

٢٢- يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين - دار الإسراء-القدس- ط٣-١٩٩٢.

الفهـــــرس

مقدمة ٣

سيرته ٤

في غمار السياسة ٦

شعره ١٣

الخيمة والمنفى ١٥

مناصرة الثورات ٢٠

شعره في حزب البعث ٢٢

مراجع البحث ٣١

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

كلمة المركز

هذه سلسلة كُتيبات نتوجه بها إلى القارئ العادي أولاً، تُعنى بتقديم قيمة معرفية عن فلسطين، من خلال إلقاء حزمة ضوء على حياة أعلام الفكر والأدب والنضال الذين غابوا عنّا، وتركوا لنا بصماتهم الواضحة في تاريخنا الثقافي في مجالاته المختلفة، أولئك الذين حملوا مشاعل النهضة بكل جدّية وصدق، ثم سلّموها للجيل الذي تلاهم.

كما تُعنى بالمدن والقرى الفلسطينية، وبالمعارك الكبيرة والصغيرة التي خاضها شعبنا على مدار حقبة طويلة من الزمن، من أجل بقاء فلسطين حاضرة في القلب والوعي والضمير، ذلك أن العدو الإسرائيلي لم يكتف باحتلال الأرض وتدمير القرى، إنما سعى أيضاً إلى إلغاء الأسماء وتشويه الوقائع والتراث، وتدمير الثقافة الفلسطينية.

وانطلاقاً من الواجب الوطني في إبقاء الذاكرة الفلسطينية حيّة ويقظة، ومن أجل ثقافة وطنية، فإن المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات الاستراتيجية، يسعى نحو تقديم التراث الوطني عبر هذه السلسلة معتمداً المعلومات الضرورية وبساطة الأسلوب ويُسر المعالجة.

رئيس المركز

د. محمد المصري

المركز الفلسطيني
للبحوث والدراسات الاستراتيجية

Digitized by Birzeit University Library